





أشهر من نار على علم !

تُرَدَّدُ اسْمُهُ الأجيال جيلاً بعد جيل ... ، وكيف لا وهو رمز للكرم ، وإليه ينسب كل ما نقوم به من مجاملات ، ومساعدات ، وتعاون على الخير والبر ، وإغاثة للملهوف ، ونجدة للمكروب !؟
و حين يبلغ العمل الإنسانيّ مداه يقول الناس متعجبين : ياله من كرم حاتمٍ !!

إنه حاتم بن عبد الله بن سعد ...

وأمه عتبة بنت عفيف من طيئ ..

كان جَوَادًا شاعرًا شجاعاً مظهرًا ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ^(١) ، وإذا سُئِلَ وَهَبَ ، وإذا أَسْرَ أطلق ، وإذا أثرى أنفق !
وقد أقسم بالله لا يقتل في حروبه واحدًا أمه !

إنه مع ذلك شاعر من شعراء الجاهلية ، وله ديوان شعر يفيض بكرمه !

وربنا سبحانه هو الكريم ، ومن كان كريم الخلق ، فقد تسمى باسمه ، واحتذى على صفته .

وأجواد العرب في الجاهلية ثلاثة نفر : حاتم بن عبد الله الطائي ، وهرم بن سنان المرّي ، وكعب بن مامة الإيادي ، ولكن المضروب به المثل حاتم وحده .

(١) أشرك الآخرين معه فيما غنم يأخذون ما يشاءون !

أليس هو القائل لغلامه يَسَار : أوقد نارًا فى بقاع من الأرض - عندما اشتد البرد - لينظر إليها من ضل الطريق ليجد حولها الدفء والطعام عندما يقبل عليها !

لقد قال فى ذلك :

أوقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قُرُ

والريح ياواقِدُ ريحٌ صِرٌّ^(١)

عَلَّ يَرى نارَكَ من يَمُرِّ

إن جليت ضيفًا فانت حُرَّ

وأراك تسأل عن أجواد العرب فى الإسلام يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

أجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد ، وهم : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

أنت إذاً مع حاتم الطائى القحطانى ، إنه أبو عدى الذى قدم على النبى ﷺ فى شعبان من سنة سبع ، وكان شريفًا فى قومه حاضر الجواب ، فاضلاً كريماً ، وابنته «سَفَّانه» التى أسلمت ، ودعت قومها إلى الإسلام .

لقد كان حاتم من أهل نجد ، وزار الشام ، فتزوج «ماوية» بنت حُجْرٍ الفسانية .

وأخباره كثيرة متفرقة فى كتب الأدب والتاريخ ، وأرَّخوا وفاته فى السنة الثامنة بعد مولد النبى ﷺ .

فتعال نسبح فى بحر كرمه ، وعساك تجيد فن العوم !

(١) القُر - بضم القاف - البرد . وريح صر - بكسر الصاد : شديدة البرودة .

من شابه أباه فما ظلم !

يقولون في أمثالهم :

«من شب على شيء شاب عليه» ، و«من شابه أباه فما ظلم»
و«هذا الشبل من ذاك الأسد» و«ذرية بعضها من بعض» .

وفى مثل «عدى بن حاتم» تقال هذه الأقوال الحكيمة ، فقد
أخرج الإمام أحمد عن تميم بن طرفة قال :

سأل رجل عدى بن حاتم مئة درهم ! ، فقال : تسألني مئة
درهم ، وأنا ابن حاتم في سماحته ، وجوده ، وكرمه !؟

والله لا أعطيك . (قال ابن حجر : وسنده صحيح)

إنه - وهو الكريم ابن الكريم - يري أن العطية على قدر
المعطي ، ومئة درهم عطية لاتناسب قدره ، ولاتناسب مروءته
ونجدته ، فكيف يعطيها ؟ .

ألم يقولوا : إن الهدية على قدر معطيها !؟

هذا عدى بن حاتم ، أما «سَفَّانة بنت حاتم» فقد سبقته إلى
الإسلام وحسُن إسلامها .

ويقال : إن عدى بن حاتم من ماوية ، وأنها من بنات ملوك
اليمن . ويقال : من النوار زوجته الثانية . وستأتى أخبارهما .

كرم مبكر !

كان لحاتم قُدور^(١) عظام معدة بفنائنه مهياًة للطبخ فإذا أهلّ
رجب نحر كلّ يوم ، وأطعم !

ومما يُحكى عن كرمه المبكر أن أباه قد جعله يقوم على إبل ،

(١) جمع قدر : ما يطبخ فيه .

وهو غلام فمر به ثلاثة من الشعراء وهم :

١- عبيد بن الأبرص .

٢- وبشر بن أبي خازم .

٣- والنابعة الذبياني .

وكانوا يريدون «النعمان بن المنذر» فنحر لكل منهم بعيرا ،
وهو لا يعرفهم !

ثم سألهم عن أسمائهم ، فتسموا له ، ففرق فيهم بقية الإبل ،
وعاد إلى أبيه ، وهو يقول له : يا أبت ؛ طوّقتك مجد الدهر
طوق الحمامة ! وحدثه بما صنع !

فقال أبوه : إذاً لا أسأكنك^(١) !

قال : إذا ، لا أبالي ! ، فاعتزله ، وكانت أمه «عتبة» ذات
سخاء وجود ، وكان إخوتها يمنعونها من ذلك ، وتأبى عليهم ،
وكانت موسرة ، فحبسوها سنة لا يقدمون إليها إلا القليل من
الطعام لعلها تكف عما هي عليه ، إذا ذاقت طعم البؤس ،
وعرفت فضل الغنى ، ثم أخرجوها ، ودفعوا إليها قطيعا من
الإبل من مالها ، فأنتها امرأة من هوازن تشكو إليها الجوع،
فقال لها :

دونك^(٢) هذا القطيع ، فقد - والله - مسنى من الجوع ما
آليت معه أن لا أمنع سائلا شيئا ، ثم أنشدت :

لعمري لقدماً^(٣) عضنى الجوعُ عضّة

فآليت أن لا أمنع الدهرَ جائعا

(١) لا يجمعنى وإياك سكن .

(٢) دونك : خذيه .

(٣) قدما : قديما .

فقولا لهذا اللائم : الآن أعفني

فإن أنت لم تفعل ، فعَضّ الأصابع

فهل ما ترون اليوم إلا طبيعةً

فكيف بتركي - يابن أمي - الطبايعا ؟!

إنها ذرية بعضها من بعض ، ورثت الكرم ، فأصبح في طبيعتها ، فكيف تتخلى عنه ؟

لقد ورث حاتم الكرم والجود عن أمه «عُتبة».

كما ورث عدى ابنه الجود عن أبيه !

وكان حاتم مسالماً ، ومن خير وصاياه لابنه عدى :

يا بني ..

إني رأيت الشرَّ يتركك إن تركته ؛ فاتركه !

فيالها من وصية ذهبية !!

.. ومن منا لا يودّ - من كل قلبه - أن يتركه الشر ، ويرحل عنه

في عصرنا الذي تحاصرنا فيه الشرور؟!

قصة زواجه من ماوية



ذهب حاتم إلى «ماوية» يخطبها من أبيها ، فوجد عندها النابغة الذبياني ، ورجلا آخر يخطبانها ، فقالت لهم : انقلبوا إلى رحالكم ، وليقل كل واحد منكم شعرا يذكر به فعالة ، ومنصبه ؛ فإنني متزوجة أكرمكم وأشعركم ، فانطلقوا ، ونحر كل واحد منهم جَزوراً^(١) ، ولبست «ماوية» ثياب أمة لها ، وتبعتهم ، فأتت النابغة واستطعمته^(٢) ، فأطعمها ذنب جزوره ،

(٢) طلبت منه أن يطعمها .

(١) جملا .

فأخذته ، وأتت الآخر ، فأطعمها مثل ذلك ، فلما أتت حاتما ،
قدم لها ثلاث قطع أطيب ما فى الجَزور ، وأهدى كل رجل
منهما إليها ما بقى من الجَزور .

فلما أصبح الصباح اجتمعوا لديها ، وأنشد كل واحد شعرا ،
أما حاتم ، فقد قال :

أماوى إن المالَ غداً ورائح

ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكر

وقد علم الأقبوام لو أن حاتما

أراد ثراءَ المالِ كان له وفرُّ

فلما فرغوا من إنشادهم دعت بالمائدة ، وقدمت إلى كل رجل
منهم ما كان أطعمها ، فنكس كل منهم رأسه ما عدا حاتما ،
فإنه رمى بالذى قدّم إليهما ، وأطعمهما مما قدّم إليه فتسللا
خَجَلًا ، وعرفا أن الاختيار قد وقع على حاتم ، فتزوجته (١) !

حاتم والأسير !

≡≡≡

خرج فى الشهر الحرام يطلب حاجة ، فلما كان بأرض
«عَنْزَةَ» ناداه أسير لهم :

يا أبا سَفَّانة ، أكلنى الإسار^(٢) والقمل !

فقال : وَيَحَك ! ما أنا فى بلاد قومي ، وما معى شىء ، وقد
أسأتنى إذ نوّهت باسمى ، ومالك متّرك^(٣) !

ثم ساوم به العَنْزِيِّين ، واشتراه منهم ، فخلّاه^(٤) ، وأقام
مقامه فى قيده حتى أتى بفدائه ، فأداه إليهم !

(١) بعدما عرفت مدى بخلهما ، وجود حاتم عندما استطعمتهم جميعا ، وكان تقديم ما أطعمها كل

واحد منهم على ماندتها لهم تعبيرا عن رأيها فيه ! (٢) الإسار : ما يقيد به الأسير .

(٣) لا يمكنني تركك .

(٤) أطلق سراحه .

حاتم فى وقت المحنة !



تحكى امرأته «ماوية» فتقول :
أصاب الناس شدة ، وحلّ بهم الجذب ، فهلك الخفّ
والحافر^(١) ، فبتنا ليلة بأشدّ الجوع !

فأخذ حاتم «عدياً» ، وأخذت أنا «سفانة» فعللناهما^(٢) حتى
ناما ، ونسيا ما هما فيه من الجوع .

ثم أخذ يُعلّنى بالحديث لأنام !

فأشفقت عليه ، وقدرت ما هو فيه ، وتألّمت لما به من
الجهد ، فأمسكت عن كلامه ليظن أنى نائمة، وينام هو الآخر !

فقال لى : أنمت ؟ وكررها مرة بعد أخرى ، فلم أردّ عليه ،
ولم أجبه ، فسكت ، ونظر من وراء الخباء^(٣) ، فإذا شىء قد
أقبل ، فرفع رأسه ، فإذا امرأة فى ظلام الليل تتادى وتقول :

يا أبا سفانة ، أتيتك من عند صبية جياع !

فقال : أحضرينى صبيانك ، فوالله لأشبعنهم !

قالت ماوية : فقمتم إليه مُسرعة ، فقلت :

بماذا يا حاتم ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا

بالتعليل !

فقام إلى فرسه ، فذبّجه ، ثم أججّ ناراً ، ودفع إلى المرأة
شفرةً ، وقال لها :

اشتوى ، وكلى ، وأطعمى ولدك !

وقال لى : أيقضى صبيتك ، فأيقظتهم ، ثم نظر إلى وقال :

إن هذا للوؤم أن تأكلوا ، وأهل الحىّ حالهم كحالكم !

· (٢) الهيناهما عن آلام الجوع .

(١) الحيوانات .

(٣) الخيمة .

فمر عليهم بيتاً بيتاً وهو يقول : عليكم بالنار أيها القوم
هَبُّوا ، فاجتمعوا وأكلوا .

أما هو فقد تقنّع بكسائه ، وقعد ناحية حتى لم يوجد من
الفرس على الأرض قليل ولا كثير إلا عظم وحافر !!

وإنه لأجوع إلى الطعام منّا ، فأنشأ يقول :

مَهْلًا نَوَارُ^(١) أَقْلَى اللُّؤْمِ وَالْعَدْلَا

ولا تقولى لشيء فات : مافعلا

ولا تقولى لمال كنت مُهْلِكُهُ

مَهْلًا ، وَإِنْ كُنْتَ أُعْطِيَ السَّهْلَ وَالْجَبْلَا

يَرَى الْبَخِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً

إِنَّ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا

بين حاتم وماوية^(٢) !



لما تزوج حاتم «ماوية» وكانت من أحسن النساء ، لبثت عنده
زمنًا ، ثم إن ابن عمِّ له - يقال له مالك - قال لماوية :

ما تصنعين بحاتم ؟ فوالله لئن وجد شيئاً لِيُتْلَفَنَّهُ ، ولئن لم
يجد ليتكلفن !

ولئن مات ليطركن ولدَه عيالاً^(٣) على قومه !

طلّقى حاتماً ، وأنا أتزوج بك ، فأنا خير لك منه ، وأكثر
مالاً ، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك ؛ فقالت ماوية : صدقت ؛
إنه لكذلك ، فلم يزل بها حتى طلقت حاتماً .

وكان النساء ، أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان

(١) نوار : زوجته الثانية وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) ذيل الأمالي : ص ١٥٣ .

(٣) عالة عليهم .

طلاقهن أنهن يُحوّلن أبواب بيوتهن؛ إن كان الباب إلى المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان الباب قبّل اليمن جعلته قبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته ، فلم يأتها !

فأتى «حاتم» فوجدها قد حوّلت باب الخباء ، قال لابنه : يا عدى ؛ ماترى أمك ؟ ما عدا عليها ؟ قال : لا أدرى غير أنها غيرت باب الخباء ، وكأنه لم يفطن لما قال ؛ فدعاه ، فهبط به بطن وادٍ .

وجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون فتواضى خمسون رجلا ، فضاقت بهم «ماوية» ذرعا فقالت لجاريتها : اذهبي إلى مالك ، فقولى له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا ، وهم خمسون رجلا ، فأرسل إلينا بناب^(١) نقرهم (نطعمهم) ، ولبن نغبقهم (نسقىهم بالعشى) .

وقالت لجاريتها : انظري إلى جبينه وفمه ، فإن شافهك بالمعروف فاقبلى منه ، وإن ضرب بلحيّيه على زوره ، فارجعي ودعيه !

فلما أتت مالكا وجدته متوسداً وطبياً^(٢) من لبن ، فأيقظته ، وأبلغته الرسالة ، وقالت : إنما هى الليلة حتى يعلم الناس مكانه .

فأدخل يده فى رأسه ، وضرب بلحيّيه على زوره ، فقال لها : اقرئى عليها السلام ، وقولى لها :

هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتما من أجله ؛ فما عندى من كبيرة قد تركت العمل . وما كنت لأنحر صفيّة «ناقة» غزيرة بشحم كلاًها^(٣) ، وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم !

(١) الباب : الناقة المسنة والجمع : نيب .

(٢) جمع كلية بضم الكاف .

(٣) الرطب : سقاء اللبن من جلد .

فرجعت الجارية ، فأخبرتها بما رأت منه ، وأعلمتها بمقاتته ،
فقالت لها : ويلك ! ، أنتى حاتما فقولى له :

إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا ، ولم يعلموا بمكانك ، فأرسل
إلينا بناب ننحرها ، نقرهم ، ولبن نسقهم ، فإنما هى الليلة
حتى يعرفوا مكانك ! فأتت الجارية حاتما ، فصرخت به ،
فقال حاتم : لبيك ! قريباً دعوت !

فقالت : إن «ماوية» تقرأ عليك ، وتقول لك : إن أضيافك قد
نزلوا بنا الليلة ، فأرسل إلينا بناب ننحرها لهم ، ولبن نسقيهم ،
فقال : نعم ، وأبى ! ، ثم قام إلى الإبل فأطلق ثيبتين «ناقتين
في السادسة» من عقالهما ، ثم صاح بهما حتى أتى الخباء ،
فضرب عراقيبهما ، فطفقت ماوية تصيح وتقول : هذا الذى
طلقتك فيه ، تترك ولدك ، وليس لهم شىء !!

من أجمل ما قاله العرب



قال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً :

أخبرنى بأفضل بيت قالته العرب فى الجود : فأنشده لحاتم
الطائي :

أماوى ما يُغنى الثراءُ عنِ الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

ترى أن ما أبقيت لم أك ربه^(١)

وأن يدي مما بخلت به صفرُ

الم تر أن المال غمادٍ ورائحُ

ويبقى من المال الأحاديثُ والذُكرُ

(١) ربه : صاحبه .

غَنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّكِ وَالغَنِيِّ (١)

فَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ

فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ

غَنَانًا ، وَلَا أُرْزَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

وأراك تقول في نهاية هذا اللقاء مع حاتم أشهر الكرماء:
وهكذا يكون الكرم !!

وعندما يتراءى لنا حاتم نجد إلى جانبه عدياً ابنه ..

أولاد الكرام !



لقد كان عديّ بن حاتم امتداداً لأبيه حاتم ..

يقول ابن حجر في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» أسلم في سنة تسع ، وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه في الردة ، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر ، وشهد فتح العراق ، ثم سكن الكوفة ، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه .

وعنه : «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء» .

وقال الشعبي عن عدي : أتيت عمر في أناس من قومي ، فجعل يفرض ^(٢) للرجل ، ويُعرض عني ، فاستقبلته ، فقلت : أتعرفني ؟ قال : نعم ..

«آمنت إذ كفروا ، ووفيت إذ غدروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، إن أول صدقة بيضت وجوه أصحاب رسول الله ﷺ صدقة طيئ » .

أما «سفانة» فإنها قد أسرت ، وأطلق سراحها وأرسلت مع ثقة يبلغها بلادها ، ولم يكن أخوها قد أسلم بعد ، فدعته إلى الإسلام بعد أن كانت قد أسلمت وحسن إسلامها .

(١) تصملك الرجل : افتقر . (٢) يجعل له نصيباً من بيت المال وراثياً .

وروى قصتها الطبرانى ، وأبو نُعيم ، والخرائطى فى «مكارم
الأخلاق» .

وأراك تقول :

وانما المرء حديث بعده

فكن حديثا حسنا لمن وعى

